المحور الأول

إفريقيا جنوب الصحراء (المصطلح، الإطار الجغرافي، البشري)

أولا: المصطلح و الإطار الجغرافي:

غن كلمة إفريقيا أطلقت لأول مرة على البلاد التي وصل إليها احد ملوك التبابعة باليمن وهو إفريقش بن صيفي الذي قصد هذه المنطقة بحثا عن ابنه ثم استقر بأرض البربر في شمال إفريقيا، أي أنها كانت تطلق على شمال إفريقيا فقط.

ثم أطلق الرومان اسم إفريقيا على تونس القرطاجية عند احتلالها سنة 45 ق م، وأصبحت تعرف بإفريقيا البروقنصلية،و هو نفس الاسم الذي أطلقه الفاتحين فيما بعد على تونس التي سموها بلاد إفريقية.

أما إفريقيا جنوب الصحراء(*L'Afrique Subsaharienne*) تلك المنطقة من إفريقيا الممتدة جنوب الصحراء الكبرى، و لقد أطلقت عليها بعض المراجع الأوروبية اسم إفريقيا السوداء، وذلك نسبة لسواد بشرة سكان هذه المنطقة، وهو نفس الاسم الذي أطلقته عليه المصادر العربية الإسلامية خلال العصور الوسطى حيث كانت تسمى هذه المنطقة بلاد السودان وهذا للتفرقة بينها وبين بلاد البيضان المتواجدة شمال الصحراء (شمال إفريقيا)، لكن مصطلح بلاد السودان لم يكن يطلق على كل المنطقة المتواجدة جنوب الصحراء و إنما كان يقتصر على المنطقة الممتدة بلاد الساحل الإفريقي إلى غاية منطقة الغابات الاستوائية و شمال السفانا.

و تمتد بلاد السودان من البحر الأحمر شرقا إلى غاية المحيط الأطلسي غربا، و من الحواف الجنوبية للصحراء الكبرى إلى غاية المناطق الغابية والمدارية في إفريقيا،و يمكن أن نميز ثلاث أقسام هي:

1.السودان الغربي: ويشمل منطقة النهري السنغال و النيجر، و تمتد إلى غاية نهر غامبيا، أو ما يعرف بمنطقة سنغامبيا.

2. السودان الشرقي: ويشمل بلاد النوبة والبجة و شمال الحبشة، و تمتد من منطقة أسوان المصرية شمالا إلى غاية الشلال السادس من نهر النيل ببلاد الشلك جنوبا، و من البحر الأحمر السودان الأوسط. إلى غاية شرق دارفور غربا.

3. السودان الأوسط: و هو الجزء الممتد غرب نهر النيجر و يشمل خصوصا منطقة بحيرة تشاد .

و رغم أن بعض الكتابات تطلق على المنطقة بلاد الزنج، لكن تجدر الإشارة إلى بلاد الزنج لا تمثل في الحقيقة إلا جزء من إفريقيا جنوب الصحراء إلا و هي بلاد الحبشة.

ثانيا: الإطار البشري:

يمكن تقسيم العناصر البشرية لإفريقيا جنوب الصحراء إلى عنصرين رئيسيين يتفرعان إلى عدد كبير من الفروع و المجموعات البشرية:

.العنصر الأبيض:

وتسميهم المصادر العربية البيضان، وهم ينحدرون من فرعين أساسيين هما:
الساميونّ؛ وهم أبناء سام بن نوح عليه السلام من عرب وسوريين، وعبرانيين هاجروا إلى المنطقة عبر مراحل متفرقة من التاريخ. أما الحاميون فيمثلهم البربر والموريسكيون وهم من أبناء حام بن نوح عليه السلام. وعموما فإن العنصر الأبيض على اختلاف نسبه إلى سام أو حام أبناء نوح، فهم يشكلون عدة مجموعات وهي:

أ. الصنهاجيون:

وهم شعب صنهاجة اللثام من البربر الذين يسكنون القفار وراء الرمال الصحراوية بالجنوب، حيث أُبعدوا إلى تلك الأماكن منذ عصور ما قبل الفتح الإسلامي، وسكنوا بلاد البربر وأرض السودان، وقد اتخذوا اللثام شعارا تميزوا به عن غيرهم من الأمم، وينقسمون إلى عدة فروع، ولعل أشهرها هي لمتونه وجدالة، لمطة، هوارة، مسوفة، سمغارة. وهناك من يطلق عليهم أيضا اسم الطوارق أو التوارق، نسبة إلى إحدى قبائل صنهاجة وهي"تاركة"، ، ويسمون هم أنفسهم بإيماجورن" أو "إيماشورن" مفرده "ايموشار".

ب. الفلاتة: ويعرفون أيضا بـ"الفولاني"، كما نجدهم في أحيان أخرى باسم "الفولوب"، وهم شعوب سامية جاءت من المشرق، وينسب الفلاتة أنفسهم إلى العنصر العربي من القرشيين، حيث يذهب مؤرخوهم إلى أنهم ينحدرون من قبيلتي جهينة وتميم العربيتين اللتين هاجرتا من الجزيرة العربية إلى إفريقيا حاملين معهم أبقارهم باحثين عن المراعي. فسلكتا الطريق المؤدي إلى أرض ليبيا، ومنها إلى إفريقيا الغربية إلى أن وصلتا إلى أودغست بأرض غانة ، وهناك من يقول بأن الفلاتيين ظهروا نتيجة احتكاك الزنوج والحاميين بشعوب بيضاء منذ زمن بعيد.

والفلاتة هم قوم شبه بيض سنحتهم عربية، يحترفون رعي الأبقار، يعيشون في السودان الغربي منذ آلاف السنين، ويتمتعون بسرعة فائقة على الانصهار في المجتمعات التي يعيشون فيها.

2. .العنصر الأسود:

وتسميهم المصادر العربية بالسودان، وإليهم تنسب بلاد السودان، كما يعرفون أيضا باسم الزنوج. ويمثلون الأغلبية الساحقة لسكان منطقة السنغال الأعلى والنيجر، ولقد تحدث المؤرخ العربي المسعودي المتوفى سنة346هـ/957م عن النسب الحامي لذوي البشرة السوداء، حيث يذكر بأن نوحا عليه السلام دعا على ابنه حام بتشويه الوجه وسواده وأن يكون ولده عبدا لولده سام، فهمّ بأن يقتل امرأته التي أنجبت له هذا الولد الأسود، فمنعه سام، وذكّره بدعاء أبيه عليه فغضب ونزع الشيطان بين الإخوة وحمل بعضهم على بعض، وكان آخر أمر حام أن هرب إلى مصر وتفرق بنوه، ومضى على وجهه يؤمُّ المغرب حتى انتهى إلى السوس الأقصى إلى موضع يعرف اليوم بأصيلا ـ وهو آخر مرسى تبلغه مراكب البحر من نحو الأندلس إلى ناحية القبلة ـ ويضيف بأن بنيه ندموا على تركه للمكان، فخرجوا على إثره يطلبونه في النواحي التي قصدها، فوجدته طوائف منهم فبقوا معه إلى أن مات، فقطنوا بذلك البلد وسكنوا به وهم أصناف السودان.

ويضيف المسعودي بأن أبناء سودان بن كنعان يتفرعون إلى عدة أمم، وهم مختلفون في أفعالهم، ولهم ملوك ومنهم أجناس يلبسون الجلود وهم عراة، ومنهم من يتّزر بالحشيش، ومنهم قوم يعملون لرؤوسهم قرونا من عظام الدواب. أما ابن خلدون فينسبهم إلى ولد حبش بن كوش بن حام، ويقسمهم إلى ثلاثة أقسام وهم: النوبيون، وهم أبناء نوبة بن كوش بن كنعان بن حام، الزنوج وهم أبناء زنجي بن كوش بن حام، أما القسم الثالث فهم سائر السودان الذين ينتمي إليهم سودان إفريقيا الغربية.

إن الشيء الملاحظ من روايتي المسعودي وابن خلدون أن السودان ينحدرون من ولد كوش بن كنعان بن حام، و أن كوش هو أول إنسان ذا بشرة سوداء من ذرية نوح عليه السلام. لذلك نرى بأن الكثير من المصادر العربية تسمي السودان بالكوشيين أيضا. ومهما يكن فإن السودان يتفرعون إلى خمس عائلات عرقية منتشرة في منطقة السنغال الأعلى والنيجر وهي:

أ.التكرور:

ويعرفون بأسماء مختلفة منها التوكولور(*Toucouleur)* أو الساراكولي *(Sarakhoulé)*، ويعد هذا الشعب من أقدم الشعوب السودانية وأشهرها، حيث كان المشارقة وخاصة المصريين يطلقون اسم تكرور على كل بلاد السودان، وحتى في عهد أوج عظمة إمبراطورية مالي وشهرتها كانوا يخلطون بين هذه الدولة العظيمة ومملكة التكرور مما كان يغضب كثيرا ملك مالي "منسا موسى" ويصر على تصحيح هذا الأمر أمام الملوك المصريين، ويؤكد لهم بأن مملكة التكرور لم تكن سوى إقليم صغير من إمبراطورية مالي المترامية الأطراف.إن هذه الشهرة التي اكتسبها التكروريون ربما تعود إلى أسبقيتهم إلى اعتناق الإسلام من بين كافة شعوب السودان الأخرى، حيث اعتنق ملكهم "وارجابي" أو "واردیابي" الإسلام منذ أوائل القرن الخامس الهجري /11م،أي قبل غزو المرابطين لمملكة غانة الوثنية.

ويعد التكرور طائفة من طوائف السودان،اقترن اسمهم باسم البلد التي سكنوها وهي التكرور حيث كانت مواطنهم التي ما زالوا يقطنوها إلى يومنا هذا وهي منطقة "فوتا السنغالية *(Fouta Sénégalaise)*.

ب.السنغاي:

إن مصطلح سنغاي لم يطلق في بداية الأمر على الشعب وإنما على البلد الذي يسكنه هذا الشعب، وهي منطقة انحناء نهر النيجر، أو ما يعرف بالنيجر الوسط، ويتألف هذا الشعب من فرعين أساسيين هما: **"زرما"** أو **"جرما"** والذين يقيمون في جنوب منطقة جاو، أما الفرع الآخر فهو **"دندي"**، وهو في النيجر الأوسط بالقرب .

ج.الماندينغ:

ويطلق عليهم أيضا اسم "ماندي"، و"ماندينكا"، ينتشر المانديغ في منطقة

انهار كل من النيجر السنغال و غمبيا. كما أنهم ينتشرون في كل منطقة السودان الغربي، وفي جنوب السنغال، وينقسم شعب الماندينغ أو الماندي إلى ثلاث جماعات فرعية هي:

1.ماندينغ الشمال: و يضمون العناصر التالية:

* **البوزو** : وهم طبقة صيادي السمك والملاحين،

* **السوننكي،** فيعرفون أيضا بالسراكولي أو الماركا. و هم الذين اسسوا مملكة غانة الوثنية.

* **الونغارة و الديولا:** يعد الونغارا عنصرا أساسيا في شعب السوننكي، وهم تجار متنقلين حيث تمكنوا من الحصول على امتياز يمنحهم الحق في ممارسة تجارة الذهب المسحوق المعروف بالتبر. اما الديولا(Dioula) أو الجولا فهم التجار المتنقلون عند المالنكي، والجولا هم عبارة عن مجموعة من العشائر المجتمعة في شكل قرى، والتي تنتمي إلى شعب المالنكي، تمركزوا على شكل جاليات صغيرة في المراكز التجارية الهامة و نقاط عبور القوافل التجارية التي تخرج من مالي باتجاه مناجم الذهب في "بامبوك" و"غالام" أو باتجاه الغابات الاستوائية. ذلك لأن ديولا يمتهنون التجارة المتجولة حيث أن كلمة ديولا في لغة المانكي تعني تاجرا.

2. ماندينغ الوسط: ويتفرعون إلى أربع مجموعات هي:

أ.كاغورو(Kagoro):

ب.الباما نا أو"البمبارا":

ج.الخاسونكي:

د. المالنكي أو الماندي:

هـ .السينوفو:

وينتشر شعب السينوفو في منطقة النيجر الأعلى والسنغال و كوت ديفوار الحالية.

ي.سكان نهر الفولتا: ويضمون عدة مجموعات منها الموشي، غورونسي، التومبو، البوبو، الداغومبا، الياتنغا، و الممبروسي.

و يضاف إلى هؤلاء العناصر السودانية في شرق إفريقيا منها الأحباش وهم سكان الحبشة أو ما يعرف بالزنوج، كما يوجد النوبيين الذين يطلق عليهم المصادر العربية لقب رماة الحدق لأنهم كانوا يحسنون التصويب بالسهام و يصيبون حدقة العين.